# اللغة العربية
# بين المقدّس الثابت والدنيوي المتحول

**جورج شكيب سعادة ***

**سبحان من جعل جديد اللحظة قديمًا بعد لحظة، وجعل الحاضر نقطة ضوئية تنهل أبدًا من بحر المستقبل وترميه في ذاكرة الماضي. وسبحانه تعالى اتّصف بالكلّية والمطلق والوحدانية، وسما فوق الزمان والمكان والحالات، بينما استمر الإنسان رهن فرصة العمر. فالزمن البشري طاحونة تمر الأشياء تحت رحاها، فتتبدل شكلًا ومضمونًا، وهو مطبوع بالتحدي لأنه دائم السريان. والناس كما الأشياء تخضع في مسيرتها لعداد الوقت، بين الثابت والمتحول، بين الجوهر والعارض. فالجوهر أو الأصل أو المقدس، ثابت لا يتبدل، لأنه منوط بمبدأ ثابت هو الألوهة التي تسبق القديم والحديث وترصد المستقبلات، وتستقل.**

لذلك، لا يجوز اتهام الجوهري بالمتحجر غير المتطور، لأنه بذاته تطور ايجابي فوق نسبيات الزّمان والمكان والأحوال. فالإنسان، في ثبات جوهره وأعماق كيانه، مرتبط بالإله الواحد لأنه مخلوق من فيض محبته، لذا تحدوه حاجه ملحة ودائمة للبحث عن الإله السّاكن فيه، والمحيط في الأكوان أجمع، وان كان الخلل في بعض أعمال الإنسان يجعل الطريق إلى الرّبّ ضبابية. وهذا الإنسان فيه المتحول إلى جانب الثابت، والمتحولات أعراض تتأتى من عناصر شتى، منها ما هو أساس في تكوين ذات الفرد، ومنها ما يُكتسب من مجتمع أو ثقافة، وغالبًا ما تتداخل جميعها وتشترك في صياغة الفرد وجملة مآتيه.

وبين الثابت والمحتول تنتصب اللغة شبَاكًا يصطاد أفكار الناس ويجمعها في حوض الذّات الحي، فتصبح حديث شفاه، أو كتابًا، أو ديوانًا، أو أي عمل فنّي آخر.

واللغة هي الذّات الخارجة من ذاتها إلى الآخر، وهي صلة الوصل بين النّاس عبر حاسّتي السّمع أو البصر أو الإثنتين معًا. وهي السلك الظاهر أو الخفي الجامع الأزمنة الثلاثة، وبها لا يستقل زمان عن آخر. فالتجديد على سبيل المثال، ينبع من البحث الدقيق في أصالة القديم[1] واللغة ترافق الزمان وتبقى مرآة الأمة، وهي على حد تعبير ابن جني: "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[2]. وهنا نطرح إشكالية اللغة: هل هي تنتسب إلى الثّابت أم الى المتحول أم يتسلط عليها العاملان معًا بموازاة طبيعة الحياة فتتجدد، كشجرة السّنديان، تسقط بعض أوراقها وتظلُّ تنمو من ذاتها بالاضافة إلى عامل الثبات في الجذور الذي يحمي استمرارها؟ وإذا كان الحديث عن اللغة عمومًا خطيرًا ودقيقًا وجدليًا، فإن الحديث عن اللغة العربية أكثر خطورة، ودقة، وجدلية، لأن هذه اللغة تدخل

في المقدس، وهي لغة التنزيل الرباني في القرآن الكريم: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾[3]، وكذلك قوله: ﴿وقل رب زدني علما﴾[4]، وقوله: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[5] وقوله: ﴿كتاب فُصِّلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون﴾[6]. لذلك وجب النظر إليها من وجهتين على الأقل: الوجهة الدينية الإلهية، والوجهة الدنيوية المتصلة بالناس. ولا يحق للثانية أن تنال من الأولى، كما أنّ الأولى ترفد الثانية بالقيم والمثل المتصلة بالألوهة، ولا تقف عائقًا في وجهها إلا في حالاتٍ تتمرّغ فيها الكلمة بالكفر والإلحاد والتهتك.

من هذا الباب ندخل إلى العنوان العام المطروح:

- **"اللغة العربية وتحديات العصر"**

ونعالج تحت العنوان الخاص:

- **"اللغة العربية بين المقدس الثابت والدنيوي المتحول"**

وقبل الخوض في تفاصيل هذا العنوان لا بدّ من الوقوف عند محطات بارزة سجلت فيها اللغة العربية تألقًا لا مثيل له، فكانت لغة عولمة إلى حدّ بعيد، وبسطت نفوذها حتى أقاصي الشرق وبعض الغرب. كما كانت قد سجلت تعثرًا فوضويًا يوم كان العرب قبائل، ولكل قبيلة لغة، من دون نفي التشابه في لهجاتهم. وكانوا على أشدَّ ما يكون الانفصال والتباعد، فلا يتصل بعضهم ببعض إلا لأسباب حياتية مُلِحّة، وقد يكون اتصالًا تصادميًا في الأيام – الحروب على طريقة ما يدور في أذهان أبناء القبائل والعشائر، وما ينطوي عليه سلوكهم. إلى أن ظهر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومضى في رسالته على خطين متوازيين الأول: إضاءة الساحة الداخلية في الجزيرة، وخوض الجهاد القاسي في سبيل دعوة الناس إلى عبادة الله. والثاني: تلقي الوحي الذي استقر كلمة ربانية بين دفّتي القرآن الكريم. ومن هذه النقطة الضوئية توسعت الرؤية، وصارت اللغة العربية الواحدة الموحدة ضرورة دينية حتمية، فخرجت بذلك من حالة الفوضى والتشظّي، لتحتمي تحت أجنحة قريش، ثم في أفياء القرآن الذي شذّبها وهذّبها، فاستقرت لتكون الوسيلة والغاية في آن. ولتكون في الوقت عينه، أداة التخاطب المثلى، بين الأقطار العربية كافّة من مشرقها إلى مغربها، وحتى إلى ما بعد الديار العربية، وذلك انطلاقًا من مركزية مكّة والمدينة وما يجاورهما. فالقرآن "باللغة الموحدة أنشأ فكرة الأمة وأسسها"[7]، لذلك أصبحت هذه اللغة مقدسة عند المسلمين، وجاذبة لغير المسلمين، لما تحمله من خصائص ومزايا في أصل ألفاظها، وفي فصاحتها وبلاغتها. لقد حمّلها القرآن، بما جاء فيه من إعجاز بلاغي ولغوي، ما لم تحمله أي لغة أخرى مما يثير اهتمام الدارسين شرقًا وغربًا.

وهنا نطرح السؤال الكبير، بل الإشكالية التي تشغل الكثيرين من المطّلعين والباحثين، وهي: هل اللغة العربية ثابتة جوهرًا كونها ناقلة كلمة الله في القرآن الكريم، تقف عائقًا بوجه المتحرك المتحول؟ أم يمكن أن تُوفَّقَ في الحالتين فلا يُمَسّ



القرآن، ولا يجمد المجتمع فيتخلف الناس عن مجاراة العصر؟ خصوصًا أن الحياة تجري بلا انقطاع ولا تعرف التوقف، فهي كالقلب للإنسان، إذا توقف لحظة دخل المرء في الموت.... كما أنّ "الحياة لا يلذّ لها السكنى في منازل الأمس".

طبعًا إن القرآن لا يُمَسّ، وهو بمجموع ما فيه يرسم طريقًا إلى العالم الآخر، ويشكّل صلّة بين الإنسان والإله. فالبحث في أن يكون متحولًا عقيم، إنه كيان مثالي بنسيج لغوي، لذلك لا يمكن الانتقاص منه.

وسبقًا للتفاصيل، لا بدّ من التعريف بمسألة التّطور والتّحول. فما معناهما وما أساس الحديث عنهما؟

لقد خلق الله الإنسان ليعبده، ويسعى جاهدًا، مدى سنيّه، لتخوّل له أعماله الارتقاء إلى الجنّة، إذا ما انقضى العمر. فالتطور إذًا يقترن بالهدف السامي وهو: الدرجة التي يبلغها الإنسان في جهاده لجهة التقرب من الله.

وليس التطور الإيجابي والمفيد إلا في الخطوات التي يحققها الإنسان في هذا المجال، وما عدا ذلك لا قيمة له، لأن الحياة عابرة، والزاد الذي يرافقنا بعد الرحيل ليس مالًا ولا جاهًا ولا مقتنيات بل ما يرضى الله في ملكوته، فالنفوس التي يرهقها هذا العالم بمغرياته، لا تستطيع، بثِقَلِ أعبائها ونقصان الشفافية، أن ترتقي وتدخل جنة الله مع الخطايا المُقْتَرَفَة. فالربّ لا يطرد الانسان من جنّاته، بل إنّ النفس الرّازحة تحت آثامها لا تستطيع أن تبلغ المراتب الروحية المنشودة.

لقد سقْتُ ما ورد أعلاه لتوضيح معنى التطور، لأن الجديد ليس المقياس، بل هي الأصالة. فما يُسمى تطورًا أو تحولًا مدنيًّا تكنولوجيًّا لا يحتل مكانه في العالم الروحي إلّا بشروط. حتمًا إنّه ضرورة باعتبار تطور الحياة، وهو وسيلة لتحسين أسباب العيش، وتوفير الهناءة للناس، ولكن هذا التحول المادي البرّاق يجب أن يرتبط بالروح، وبالارادة الإلهية، لأنه عمل إنساني بسماح من الله، بل من نِعَمِ عطاءاته التي لا تُحَدّ. فقطع الصلة بالواهب هو نكران له، وبالتالي ضرب غير مباشر من الكفر. فإن أصبح التطور التقني غاية بذاته، وأداة لانغماس الإنسان أكثر فأكثر في عالم التراب ومقتضياته، فيستحوذ مجامع فكره ووجدانه، عندئذٍ يُمسي التطور تهورًا، وحاجزًا يصعب اجتيازه للارتقاء.

فالشروط تكمن إذًا في حسن الاستعمال، لأن الخطايا صغيرها وكبيرها تكمن في سوء الاستعمال:

سوء استعمال اللغة "إنّ كُلَّ كلمة بطالة يتكلم بها الناس يُعْطَوْنَ عنها جوابًا في يوم الدين"[8] لأن الكلمة هي الله، وسوء استعمال الجسد، والمال، والوظيفة... إلخ لأن الإنسان مدعوّ إلى الصلاح، وفعل الخير.

إنَّ كلَّ ما نراه اليوم من بهرجة وظواهر خلّابة، ووسائل تكنولوجية، وجديد مدهش، تضرب الثقافة العربية واللغة. وجميعها لا تتخذ منزلًا لها في بيت الحق إلا إذا استخدمت استخدامًا لا ينفذ إلى تبديل جوهر الذات. فالرفاهية التي تأسر هي وَهْمُ

رفاهية، وقد قال جبران خليل جبران في كتاب النبي: "يا أبناء أورفيلس ماذا تملكون في هذه البيوت؟ الرفاهية... والتحرق للرفاهية الممزوج بالطمع. الرفاهية التي تدخل البيت ضيفًا ثم لا تلبث أن تصير مضيفًا، فسيدًا عاتيًا عنيفًا؟ ثم تتحول إلى رائض جبّار يتقلّد السوط بيمينه والكّلاب بيساره متخذًا رغباتكم الفضلى أُلعوبة يتلهى بها مع أن بنان هذه الرفاهية حريري الملمسِ فإن قلبها حديدي صلد"[9].

الأزمة إذًا هي في أنَّ جميع الوجوه الجديدة تحّول وجدان الفرد والجماعة فينصرفون إليها غير مكترثين بالتراث والحضارة واللغة، وبالتالي فالعالم العربي في حالة صراع بين الجديد المتدفّق المتحول تحت عنوان العولمة، والقديم الثابت المتحصّن بالقيّم والمُثل العليا، واللغة في الميزان.

لذلك لا بدّ من وضع اللغة العربية على محك تاريخي لسبر قيمتها في مراحل مختلفة، وقدرتها الطّوعية على الاستجابة لموجبات العالم المتحوّل.

من البدهي القول، بلا نقاش، إن هذه اللغة هي الصلّة الوثيقة العامّة بين الناس، وهي ركن الثقافة والحضارة، وبحروفها نُسِجَ التاريخ وبقيت شاهدًا عليه، وعلى جملة مآتيه. ألم يقل الجاحظ: "عقل الرجل مدفون تحت لسانه"؟[10]. واللغة، على حدِّ قول مصطفى صادق الرافعي: "صورة وجود الأمّة بأفكارها ومعانيها وحقائق نفوسها[11]. والعربية بعد أن رسّخها القرآن على أسس ثابتة، وكانت انطلاقتها الأولى الاشعاعية في العصرين الأموي والعباسي، يوم كان ازدهار الدولة، وتمادي الفتح، وبسط السيطرة من المحيط إلى الخليج إذّاك أخذت موقفها المتميز. ليس لنا أن نخوض في تفاصيل هذين العصرين وفي مواكبة اللغة لهما، ومساهمتهما في احتضان مظاهر الازدهار والتطور، ولكننا نؤكد أن اللغة كانت جسر عبور نَقَلَ المجتمع العربي من حالة إلى حالة. فلو كانت العربية جامدة عن الاشتقاق، عاجزة عن التحول لما كانت آنذاك وعاء استوعب كل العلوم التي صبّت في البحر العربي اللغوي المتحول، ومترجَمَةً إليه. ألم تحتو علوم اليونان والرومان وبلاد فارس والهند. حيث كانت الألفاظ والتعابير تنقل آنذاك إلى أصل لغوي عربي، أو تُكتب بالحرف العربي من دون المساس بلفظها الأصلي وفي كلا الحالتين تمكنت من الاستجابة لمتطلبات تلك الحقبة، وسجّلت ما سجلت من الانتشار والسيطرة، وظلّت باختصار لغة القرآن وفي الوقت عينه لغة العلوم.

ولمّا كانت الأمم القريبة والبعيدة في ذلك الحين، تحظى بسبق في مختلف الفنون الثقافية، كان لا بدّ من الافادة منها، ولم يكن الأمر متاحًا إلا بالترجمة، والترجمة لا تكون إلا بلغة ملكت قابلية الاشتقاق، وكثرة الاحتمالات، والقدرة على احتواء المعاني في جليلها ودقيقها. ولمّا كانت اللغة العربية مستوفية الشروط فَتَحَتْ الدروب واسعة أمام المترجمين، وجعلت المجتمع يزهو بتطور لا مثيل له. لقد وجدت الترجمة في هذه اللغة أداة طيّعة للتبادل العلمي والفكري بين



الشعوب، فإليها تسّرب الكثير من المعاني الاصطلاحية والتراكيب الفنية، واتسع صدرها لعدد كبير من الكلمات الأجنبية. وتحولت في فترة قصيرة من لغة قبلية إلى لغة عالمية، وعرفت كيف تتفاعل مع غيرها من الثقافات، حتى غدت لغة الدين والادارة والحكمة والقانون والسياسة والتأليف[12]، وسجلت في مرونتها ما يتناسب مع متطلبات الترجمة والتعريب إذ "لا يوجد في الكلمات العربية ما يقابل جميع الكلمات اليونانية، ولهذا بقي في التعريب الكثير من الالفاظ اليونانية على حالها. وكذلك فإن خواص المترادفات لا تطابق نظيرها في لغة أخرى"[13].

وعليه، فإن العولمة اليوم لم تكن الحالة التاريخية الوحيدة التي وضعت لغتنا أمام امتحان صعب، فلقد صادفت منذ أواخر الجاهلية حتى يومنا هذا محطات فور وغور، ترافقت مع أحوال الأمة وأوضاعها، فمثلما كان صعود الدولة العربية باهرًا واللغة تواكبها، كان هبوطها مذهلًا واللغة تتراجع معها. فغلبة اللغة في مرحلة الصعود كان مشرفًا وسريعًا بدفع ديني وعسكري وثقافي، وتراجعها حين الهبوط بدا بطيئًا لأن اللغة ظلّت تقتات من ماضيها الديني والحضاري... واستمرت كذلك حتى تباشير النهضة. وما زاد طين السقوط بلّة الاحتلال التركي (1516)، واصرار الدولة العثمانية على اعتماد لغتها بديلًا من العربية، وهذا ما أضنى العثمانيين والعرب معًا، "فالعثمانيون، لو جعلوا اللغة العربية رسمية، وتداولوها في امبراطوريتهم المترامية الأطراف على الأراضي العربية، لما سقطت امبراطوريتهم"[14]، ولكن لغة الضاد، مع هذا الامتحان الصعب ظلّت صامدة على ركائز أولها وأهمها القرآن الكريم، تليه المدارس والمؤسسات التي نشطت في لبنان وسورية والعراق ومصر، فكانت جميعها تدفع شبح التتريك.

في هذا السياق لا بدّ من وقفة لمّاحة نذكر فيها اللغات أو اللهجات المحلية في عملها الايجابي أو السلبي في الصنيع الثقافي والحضاري، ودور العولمة في الحالين. هذه اللهجات كانت قبل الاسلام واستمرت بعده، فهل هي مضرّة مشوِّهة إلى الحد الذي يتداوله البعض، أم لها حسنات تُسجّل؟ وهل هي تناهض الفصحى أم تولد من سلالتها وتحمل جيناتها؟ وهل الفوارق بين العامية والفصحى ناتجة عن موروثات تاريخية وخصائص اجتماعية وبسبب ترامي الأصقاع العربية وتباعدها.

لقد سجّل الشاعر القروي وهو أحد شعراء المهجر الجنوبي رفضًا للعامية على أنها ضد العرب، ودسٍّ عليهم: "لغة العروبة هي هذه اللغة الخلّاقة المطواع، لغة أهل الجنة، اللغة التي اتسعت لرسالة الرحمن... وكل عادل إلى العامية عنها، مبشر بها دونها، إنما هو ضد العرب، دسّاس عليها وعليكم، كائد لها ولكم، عامل على قتلها وقتلكم"[15].

ومن سلبياتها أيضًا أنها تزيد الفرقة بين الأقاليم نظرًا إلى غموض بعض المعاني والخلل في الإفصاح. في ما ينعت به جماعة برج بابل. كأن هذه الحالة مخطط

لها من قِبَلِ دول تريد اخضاع الشعوب العربية من خلال حلّ الروابط التفاهمية بينهم، عنيت اسقاط اللغة.

في هذا الإطار تقول "زينب جكلي": "من آثار العولمة اللغوية، تكريس الانقسام الذي تمارسه الدول الكبرى على الشعوب العربية، على أساس اللغة واللهجات.. وهذا يتعمم على شعوب العالم الثالث، في معظم الدول، من أجل السيطرة على هذه الشعوب"[16]. فهل صحيح أن العولمة قسمت الشعوب واللغة؟ الشطر الأول من السؤال ممكن، وأما الشطر الثاني فبحاجة إلى نقاش يرتكز على التاريخ والواقع.

نحن نعلم، والتاريخ يشهد، أن اللهجات أو اللغات العامية، لم تندثر في العصور الاسلامية الأولى، وهي ما زالت مستمرة حتّى يومنا هذا، والأمر طبيعي، اذ من الصعوبة بمكان أن نجعل الفصحى لغة يومية معمّمة، يتكلمها الناس في المنازل والحوانيت والأسواق. ومثلما يكون هناك حضور رسمي للناس في بعض المواقع والمحافل، وحضور شعبي في أماكن أخرى، كذلك الأمر في شأن اللغة. ولو أنعمنا النظر في العاميات لوجدنا معظم ما يُتَداول منها ينتسب إلى الفصحى، مع شيء من التحريف في اللفظ والمعنى[17]. وفي الاطار عينه إذا أقمنا مقارنة بين الصورة في الفصحى والصورة في العامية لوجدنا أن كلتيهما يتقاربان لفظاً ومعنى، ويسجلان فصاحة وبلاغة على مستوى رفيع[18]. وفي ذلك كله أهمية كبرى، ونقاط لقاء بين الاثنتين تعزيزًا للغة الفصحى من طريق تبسيط هذه، وتنقيح تلك، وفي الأمر مقارنة أو مقابلة. فالقرآن الكريم ينضمُّ إليه جميع العاملين، في الفقه وعلم الكلام؛ جمع اللهجات وثبّتها فأصبحت كل لفظة في القاموس العربي تحمل معاني سلالتها القبلية، وتتخذ لها موقعًا رسميًا معترفًا به، فتتشعّب المعاني والدلالات، خصوصًا في سياق العبارة. أليس ما يحدث في "البَعْد" يصح مع ما جرى في "القَبْل"، وتظل اللغة تتجدد وتغتني؟

طبعًا ليس من حقنا، مهما جارت العولمة ودقّت المخططات، أن نسجن الفصحى في أواني العامية، بل يمكن بالأحرى وضع الجزء في حاوية الكل. الاناء الكبير يتسع للصغير، فلنقرب الخاص إلى العام، والجزئي إلى الكلي، لكي تستمر الروابط بين الدول العربية وتترسخ، ونواجه بها نسيج المخططات المصنوعة في الخارج بخيوط غير عربية. لذلك فإن الوصف الواقعي يحتم علينا الفصل بين اليومي المتحوّل، أكان لغة محلية أم لغة عولمة، والجوهري المقدس الثابت. لأن الربط بينهما، والالحاح عليه، قد يعرقل مسيرة الحياة، ويوقع مجتمعاتنا في الجمود.

ولمّا كانت العاميات بحيرات اقليمية شبه مستقلة في بعض أشكالها ومضامينها، تتصل بالمنبع الأصلي حينًا، ويشح اتصالها حينًا آخر، فلنتخطاها، وننطلق إلى الأهم وهو العولمة في سلبياتها وايجابياتها.

لم تعرف العولمة ولادة مفاجئة إلا بالمعنى الشامل للكلمة حين اتّصفت بالتعميم من خلال الانكليزية كأداة لغوية.



أما قبل ذلك فكان هناك ما يشبهها إذا اعتبرنا أن الجزء، على جزئيّته، يحمل صفات الكل، فالاتصال المتبادل بين الشرق والغرب، منذ العصور الإسلامية الأولى، شهد امتدادًا مباشرًا بالفتوحات أو عبر الترجمة، فكان يشكل صورة من صور العولمة لأن العالم آنذاك كان يقتصر على الشرق والغرب الأوربي دون سواهما، وفيهما بسطت اللغة العربية نفوذها وسلطانها في أكثر من وجه. يقول المؤرخ اللبناني فيليب حتّي: "ما أطلّ القرن العاشر الميلادي إلاّ والعالم يتقاسمه زعيمان: شارلمان في الغرب وهارون الرشيد في الشرق".

وأطلّ عصر النهضة بعد كبوة الانحطاط، واللسان العربي صامد على وهن، وقد بدأ يتململ ليستعيد سلامة النطق. وفي هذا، لم تستطع الفرنسية ولا الانكليزية أن تمنعه من استرجاع عافيته. ففي مقابل الاستعمار، والسعي إلى بسط النفوذ، عبر اللغتين الأجنبيتين، نشط اللغويون والشعراء والأدباء، فشهدت العربية، في ذلك، نهضة مباركة على الرغم من أن براعم العولمة بدأت تتحرك منذ ذلك التاريخ، إلى ان تمّ الأمر لها مع تفكك الاتحاد السوفياتي في العقد الأخير من القرن العشرين.

لقد كان عصر الاستعمار منذ أواخر القرن الثامن عشر امتحانًا للعرب والعربية، ولم يقتصر الامتحان على الثورات والمقاومات التي جرت على مساحة الوطن العربي، بل كان ثمّة ثورة لغويّة تمثلت في الشعر والنثر والمسرح، وسواها من النشاطات؛ وكان للقريض دور بارز في التحدي، والدفع إلى النهوض ورفض الحال، نورد على سبيل المثال بعض أبيات لشعراء نهضويين.

جاء عند الشيخ سليمان ظاهر العاملي:

لغةٌ لم تَزَلْ مصونةَ قَدْرٍ
تحت ظلٍّ من العُلى ممدودِ
كُلُّ حرفٍ منها يفيض حياة
هي في الدهر بعضُ آي الخلودِ

وقال وديع عقل:

أيها العُرْبُ اذا ضاقت بكُم
مدنُ الشرق لهول العاديات
فاحذروا أن تخسروا الضاد ولو
دحرجوكُمْ فيها في الفَلَواتِ

وقال:

لغتي أكرمُ أُمٍّ لم تَلِدْ
لذويها العُرْبِ غيرَ المكرُماتِ
إن يوماً تُجْرَح الضاد به
هو، والله، لنا يومُ المماتِ

ونظم حليم دموس أبياتًا تدعو إلى التمسك بالفصحى وجعل العُرى وثيقة بينها وبين كرامة الوطن، ومما قال:

وأنتم يا بني قومي أناشدُكمُ
بمن به عزّ انجيلٌ وقرآنُ
صونوا حمى اللغة الفصحى فليس لكم
من دونها وطن يعلو له شأنُ

وبالنتيجة فخط الدفاع الثاني عن اللغة، وبعد الحقبات الأولى، كان في عصر النهضة الذي استمر، بين اخفاق ونجاح على مدى خمسة قرون، إلى أن تمكنت العولمة من الشيوع، بصورة واضحة، لتحوّل العالم إلى قرية كونية[19]، ويبدأ صراع مرير على مستويات عدّة، وعلى الأخص على

مستوى اللغة. ليس من المفيد تحديد العولمة، فقد عرفت اللفظة تحديدات كثيرة تتباين في التفاصيل. بعضها يكشف جوانب جديدة ودقيقة منها، وبعضها الآخر يكرر ما سبق قوله، إلا أن الواضح هو محاولات العالم المتطور السيطرة واخضاع الشعوب، وهنا نشهد سباقين محمومين، الأول: قائم في ما بين الدول المتطورة (أوروبا، الولايات المتحدة، اليابان، الصين...) بحيث يسعى كل منها إلى بسط نفوذ أوسع. وتترأس الولايات المتحدة هذا الصراع ليكون لها السبق الدائم. والثاني: صراع بين المجتمعات المتطورة والعالم الثالث الذي يُعتَبر غنيمة، وحقول انتاج واستهلاك للعالم المتطور.

وما يعنينا من هذا التنافس هو سيادة اللغة الإنكليزية على ما عداها من لغات بحيث أصبحت، أو تكاد، اللغة الوحيدة المتعارف عليها دوليًا في حقول التكنولوجيا وما يتبعها، فبتنا أمام عولمة لغوية تقنية، تشكل التحدي الأكبر. اذ لا يمكن عمليًا التخلي عن التقديمات الحديثة، كما لا يمكن التنازل عن العربية بتاريخها الديني والثقافي، وهو حافل بالإنجازات الباهرة. ونسجل، من خلال التسابق المحموم، شواهد كثيرة يصعب حصرها وهي واضحة للعيان، تطالعنا كل يوم وافدة من هناك أو هناك، من قريب أو بعيد، تحملها الانكليزية بالدلالات العربية مكتوبة بالحرف الأجنبي. وربما تكمن هنا إحدى المشكلات التي تواجهنا، وهذا ما نجده في المؤسسات الخاصة والجمعيات والشركات. واللافت أن العلاقات بين الناس عبر وسائل التواصل الحديثة، تجري في الغالب إما باللغة العربية العاميّة أو بالمعنى العربي مُعَبّرًا عنه بالحرف اللاتيني.

هذه الحال تسود جميع المستويات العمرية والثقافية. وما يزيد القلق هو أن الأجيال الصاعدة، منذ الطفولة الثانية إلى سن البلوغ تعبر بهذه الطريقة. حتى أن اتقان العربية في بعض البيئات بات عيبًا، وتشكل بعض المؤسسات التربوية بؤرة الخلل لجهة الوهن في اتقان اللغة. ما رأيكم في أن بعض طلاب الجامعات يكتبون عبارة بعد عبارة باللفظ العربي وبالحرف اللاتيني مطعّمًا بأرقام حيث الهمزة 2 والخاء 5 والعين 3 والحاء 7. واذا لامسنا الموضوع عن قرب وجدنا انشطارًا عموديًّا في مجتمعنا، بمعنى انفصال الأجيال الناشئة عن الموروث انفصالًا لا يطول لغة الشعر والنثر وسائر الفنون وعدم الاعتراف بالقديم، والعجز عن فهم ما كان، وحسب؛ بل يتعداها إلى عدم الرغبة في تبني لغة الأمس ومفاهيمها وقوانينها. وهذا ما يفسر الكساد المستشري في الاصدارات الورقية بجميع وجوهها. وانشطار الحاضر عن الماضي أصاب أيضًا في ما أصاب، الصلات العائلية بين أفراد الأسرة الواحدة، فان اجتمعوا تلازموا في السكن، وتباعدوا في التواصل والتعاطي ليكون الخلوي جليس كل واحد، وطريقة التعاطي مع الداخل والخارج، حتى يبلغ الأمر حدّ أن يكتب الشقيق لشقيقه الجالس إلى جنبه، أو في غرفة مجاورة عبر "الواتساب"، أو "الفيس



بوك"، وما شاكل. وهذا ينافي الطبيعة البشرية التي تحتم الإلفة برباطات الدم والقربى، والحاجة المجتمعية.

هذا النقص يتأتى من أربعة مصادر تساهم في تسعير المشكلة: المنزل، والمؤسسات التربوية، والجمعيات، والمؤسسات الرسمية.

فالولد منذ مطلع وعيه، يكتسب لغة هجينة، ألفاظا عامية عربية، تختلط في معظم البيئات، لا سيما المدينية منها، بألفاظ أجنبية، يضاف إلى ذلك هزال التربية المنزلية، في الأخلاق والمواطنة، لأسباب ترتبط إما بالرفاه والبحبوحة، أو بالفقر والعوز، أو بمشاكل عائلية واجتماعية يصعب تعدادها وحصرها. ما يجعل مسلك الأولاد مضطربًا، والتعويض من النقص بنقص أدهى، اذ تتلقفهم الظواهر المتسلّلة ببراءة أو بخبث، فيستسلمون لها، ويصبحون ضحية الحالة الجديدة، كما تصبح اللغة بدورها ضحية. والأمر ليس أفضل في بعض المدارس وسائر المؤسسات التربوية، خصوصًا لجهة المناهج المعتمدة، ومن ثمارها تسطيح الفكر وتسخيف اللغة. ذلك أنّ غالبية المناهج مستقاة من الغرب، تستورد بحرفيتها، فتترجم عن الأصل من دون مراعاة التباين الثقافي والحضاري، فيقف الطلاب بل المدرِّسون، أحيانًا، أمام تراكم منهجي كمّي متضارب، لا ينجو من فوضاه إلا واسع الفكر، وطويل العمر في الروية والأناة والتبصر. وهذه الترجمات المنهجية تكون حافلة بالمصطلحات الأجنبية، يضاف إلى ذلك ضعف الرؤية عند الكثيرين من معلمين ومتعلمين إذ يحسبون أن المستورَد حقيقة ثابتة، ودواء شافٍ، حتى ولو تعطّل لاحقًا في بلاد المنشأ. إن أغلب المناهج المعتمدة في اللغة العربية هي الأكثر إساءة إلى اللغة، فكم من مرة حاضرنا في طلاب فاقديّ الشهية اللغوية لأن المنهج المتّبع غير مناسب، لا في الشكل ولا في المضمون. حين كنا ندرّس الأدب قبل عقود، كان هناك متذوقون، وكان لنا من تاريخ اللغة والأدب ما يشّرف وما يبهر الفكر والوجدان. فجاءت العولمة لتطمس ما كان، غثّه وسمينه.

ولا يقتصر ضرر الانحراف على التقصير في مسألة اللغة وحسب، بل يتسلل إلى معظم نشاطات الفرد والجماعة فيحدث تحولًا فكريًا ووجدانيًا، تظهر آثاره السلبية لاحقًا، وتتعاظم، فتتفاعل وتتشعب، لتفضي بنا إلى مشهد مجتمع متخلٍ عن أصوله، فاقد المناعة.

والغريب في الأمر أن الاجانب، بعض الأجانب يتلهفون لتلقن اللغة العربية وفهمها وإجادة التحدث بها، حتى إنَّ وفدًا أكاديميًا من البرازيل زار إحدى الجامعات اللبنانية وطلب أساتذة ليدرّسوا العربية هناك. وليس خافيًا على أحد نشوء المدارس والصحف والمجلات في الأمريكتين، والاهتمام بالعربية في أوروبا. مع الاشارة إلى أن عددًا من المؤسسات التربوية في استراليا ما تزال تدرّس العربية، ونحن بصدد احصاء هذه المدارس وطلابها والمناهج التي تدرس بها.

والضرر اللاحق باللغة يتأثّر أيضًا من

معظم المؤسسات والأندية التي تضرب باللغة عرض الحائط، وتوغل في اعتماد العامية واللهجات المحلية.

أمّا الاعلام فيحتلُّ دورًا محوريًا، فهو يشكل الروابط الشاملة والفاعلة، فيبث عبر المرئي والمسموع في كافة أقطار العالم، ويقدم الأخبار وبعض البرامج باللغة الفصحى، فيؤدي خدمات جلى للغة، معرّفًا بها أسلوبًا ومضمونًا، حتى إنَّ العربي إن وجد في أي بقعة من بقاع الأرض يستطيع الاستماع والمشاهدة. ونتوقف عند المؤسسات الرسمية التي تعتمد الفصحى في كافّة الأقطار العربية، وتسعى باستمرار إلى بلوغ الأفضل، وهذا ما يمتّن العُرى اللغوية بين الدول، ويشّد أواصر أبنائها، خصوصًا في الدول التي أصابها الاستعمار سنوات طويلة كدول المغرب العربي. وفي المؤتمرات الكثيرة التي عقدناها هناك سمعنا كما شاهدنا بأمّ العين المنحى العربي الفصيح الذي تنشأ عليه الأجيال، وإن كانت تعابير كثيرة مقتبسة من الفرنسية وشائعة في تلك المجتمعات فأصبحت أو ستصبح بعد حين مستقرّة في القاموس الاجتماعي الشعبي، وربما النحوي السائد هناك.

**– العولمة في ميزان الايجابيات والسلبيات**

إنّ ثمار النشاطات الإنسانية، في أي عصر أو أي بيئة، لا يمكن أن تكون جميعها عسلية المذاق أو حنظلية، فكل شيء في الوجود نسبي، الله وحده عزَّ وجل، هو مطلق المعرفة والخير والجمال. فللعولمة إذًا ايجابيات وسلبيات بخصوص اللغة أو سواها من العناصر المجتمعية، وفي الحالتين لا تستطيع أن تحيط بكل شيء "في عالم متنوع حضاريًا، وثقافيًا، ولغويًا، ودينيًا"[20]. فمن فوائد العولمة أنها تمدّ أسلاكًا ظاهرةً وخفيةً، تجتاز الحدود بين الدول، وتقرب المسافات بين القارات، فإذا بالمجتمعات وحدة تواصل، وان كانت تتفاهم حينًا وتتنابذ حينًا آخر بسبب تضارب المصالح والمنافع. فما يحدث في أي مكان يتلقفه الإنسان لحظة حدوثه إذا شاء، من دون أي عناء، فيترك الأثر في النفس والوجدان، وفي الفكر الذي أصبح أحيانًا على كثير من التجاور في مقاربة الأمور. وهذا ما كان ليتوفر في السابق، إذ كان الناس في مطلع القرن العشرين، يتقوقعون في مجتمعات ضيقة ومحدودة، ساحتها القرية وفي أحسن الأحوال المدينة الصغيرة، وكلتاهما محتجزتان في حدود الأعراف والتقاليد والعادات. لا تواصل ولا تفاعل إلا بجهد، ولا مشاركة إنسانية إلا في الحد الأدنى، وفي الحدود الجغرافية الضيقة. والصلات بين الدول متعثرة بحكم بطء المواصلات والاتصالات. هذه الحال من التفكك الاجتماعي على الصعيدين الدولي من جهة، والمحلي من جهة أخرى، كرّست نوعًا من العداوات بل قلّ التباعد في الأمور كافة، فجاءت العولمة لتكرّس التداخل وتبادل المعارف والخبرات الثقافية والعلمية، وتزيدها أضعافًا مضاعفة. أما ما كان من تفكك وتباعد، على الصعيدين المحلي والاقليمي، فقد أدى الى تفاقم اللهجات المحلية حتى أننا كنا نجد بعض الفوارق



بين قرية وقرية، أو حيّ وآخر في القرية عينها، وبين منطقة ومنطقة في الوطن الواحد. وقد كشفنا ذلك حين قمنا بدراسات ميدانية في لبنان، وهو بلد صغير المساحة، فوجدنا فارقًا كبيرًا في اللغة مفردات وتعابير بين الجنوب والشمال، وبين بيروت والجبل والبقاع.... وكذلك بين ما يجري في سوريا والعراق ومصر وتونس... فعندما عمّت العولمة وتمّ التواصل، بات التفاهم عبر الفصحى أفضل وأجدى. إنّ العولمة من هذا القبيل قدمت فوائد إنسانية لا تحصى، فالهدف الأسمى للإنسان هو أن يتواصل مع أخيه الإنسان: ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾...؟[21] هذه الآية تشير بوضوح الى ضرورة الوحدة الإنسانية وقبول الآخر. فالله واحد وخالق الجميع، إذًا فليكن جميع خلقه في تحاب.

شاعت العولمة فاذا الناس في اطلاع دائم على مجريات الأمور، ولكنهم لم يكونوا في توافق على تلقيها ومقاربتها بسبب تناقض المفاهيم، وتضارب الاراء والقناعات، واختلاف سُلّم القيم. أضف الى ذلك ما ينطوي عليه مفهوم العولمة من أهداف خفية مشبوهة، أقل ما يقال فيها التّعدي على الشخصيّة الوطنيّة. وإنَّ مجرد الإطلاع على الظاهر والخفي في الحركة العالمية، يجعل المتبصّر يدرك أنّ بضع مئات من شركات العولمة ومؤسساتها تتقن الطلاء الخارجي، والملامس الحريرية في الظاهر، ولكنها في الباطن وحقيقة الأمور تسعى إلى ضرب الأوطان والأمم بُغيةَ الإلغاء التدريجي للأفكار المجتمعية لأي من هذه الأوطان، وللأفكار الوطنية، ومفاهيم الأمم والجماعات المنتمية إلى بعضها البعض بحكم عوامل كثيرة. وما يجري في أميركا اللاتينية، وافريقيا، والشرق الأوسط خير دليل على ذلك.

هذه الأهداف تُشظّي الأوطان وتحلُّ عُراها التاريخية والحضارية، واللغة من أبرز ما تتعّرض له من مخاطر، ولا سيما اللغة العربية التي تحمل الدين والثقافة والتراث، وتشكل الاتصال بين خيوط أفراد الأمة وجماعاتها، فتسجن الزمان في نسيجها المتراكم، وتكوّنُ صلات بين العرب أينما وجدوا. إذًا، إنَّ العولمة قد تكون سليمة المنطق، أو بنت التطور الطبيعي للحياة، ولكن الطريق التي سلكتها لم تكن كذلك، بل جاءت حافلة بالمعاثر، ناصبة الأفخاخ، ومن أخطرها طمس المعالم وتشويه الخصوصيات، لاسيما في العالم الثالث بما ترسمه مسبقًا من جهة، وما تضخه من جديد مدهش وجاذب في دول تصيبها الهشاشة، وتنتظر أيَّ تغيير يطرأ لتتلقفه. كما أن قانون الطبيعة يقضي بأن يتأثر الضعيف بالقوي، ويتبعه ولو جزئيًا وبصورة تلقائية دونما قصد، وبخاصة اذا كان هذا الضعيف منهكا كما حال الانسان العربي اليوم في ظل الانقسامات والتقاتل.

إنّ العولمة يمكن أن تكون أفضل ما تتوصل اليه البشرية في تقديم المعارف وتعميمها، وفي نسيج العلاقات بين الأفراد والجماعات، ولكن ذلك يتطلب تصويب أمور وتوفر أخرى.

ففي الأولى ضرورة تراجع إرادة الهيمنة، وبسط مفاعيل القوي على الضعيف، والتستر وراء التقنيات لمحو الخصوصيات، والتفرد في تثبيت النفوذ، وفرض اللغة الواحدة عنوانًا لجميع الانجازات.

وفي الحال الثانية، ضرورة استرجاع الذات العربية عقليًا ووجدانيًا، والاستعداد للتعاون مع الاخرين حتى الاقوياء من دون ضياع الهوية والشخصية المميزة، وتاريخ اللغة وموقعها الفريد، والانجازات التي تحققت عبر العصور. مع التأكيد على أنه ليس بالامكان محاربة الانكليزية أو رفضها، لأن هذا محال في الوقت الراهن، بل إن قبولها حاجة علمية يومية إذا رغبنا في مواكبة الركب الكوني السائر، بخطى حثيثة، في التطور المادي.

وانطلاقًا من اعتبار التطور المادي نكرّر الاشارة إلى أنّ اللغة، ولا سيما العربية، تستعمل بطرق متعددة ووجوه شتى، وهذه لا تنفى تلك، فيمكن أن تكون للدنيا وحاجاتها الكامنة في مآتي العلم والتكنولوجيا، كما يمكن وباصرار أن تكون وعاء الفكر والوجدان، وهي الرابط الجوهري بين الناس، وبين الانسان والطبيعة، وفوق ذلك كله بين المرء وخالقه. فالله هو الكلمة، وهل أشرف من هذا التعبير المهيب. فالديانات السماوية الثلاث قوامها الكلمة، على لسان أنبياء التوراة، وعلى ما جاء في الإنجيل المقدس وهو كلمة الله عند المسيحيين: "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله"[22]، وما جاء في القرآن الكريم تنزيلًا، وهو كلمة الله عند المسلمين ﴿إنّا جعلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون﴾[23]. إذًا بين فروضات الدين وحاجات التطور لا يمكن للمجتمعات إلّا أن تتفاعل مع الحياة في وجوهها كافّة. وعليه، لا يستطيع أي مجتمع أو دولة رفض العولمة بما تنشره من مفاهيم، وبالقنوات التي تسلكها لتبليغنا نتائجها، فيمكن، والحالة كذلك، الإفادة من ايجابياتها، والتقليل من سلبياتها وذلك ضمن خطط مدروسة شاملة وواضحة، وسهلة المتناول والتطبيق، تتركز على ما يأتي:

1- **في الشأن اللغوي:** أن يتبنى المسؤولون في كافة الاقطار العربية إنشاء مؤسسات تعيد النظر في اللغة، فتسقط ما تخطاه الزمن من ألفاظ وتعابير لم تعد تتوافق مع العصر والتطور، وتتبنى البساطة، وتأخذ من العاميات ما اتصل منها بالفصحى على غرار ما حصل مع نشوء الإسلام حين استلت من اللهجات الجاهلية اللغات الفصيحة المناسبة، وثبتت في الكتاب. كما تُقتبس من اللغات الأجنبية ما تفرضه حاجات الترجمة والتعريب. هذا التبني يظل، أو يجب أن يظل بمنأى عن الخلافات السياسية، والصراعات العسكرية، خصوصًا أن الاختلاف القائم لا يتعرض للغة ولا يتعارض معها، وفي هذا المجال تؤدي المجامع العلمية دورها البارز. وهنا ثَمّةَ سؤال يطرح نفسه: من هو القادر على تطوير اللغة؟ الناس أم المجامع اللغوية أم من؟ يقول أندريه مارتينه في أبحاثه إنّ تطوّر اللغة لا يتّم إلّا ببطء، لأن هذا التّطور يتنازعه عاملان متعاكسان: الأول يتّجه إلى تغيير في البنية والمفردات تفرضه



حاجة الإنسان الدائمة إلى تحقيق تواصل أسرع بأقل جهد ممكن. والثاني ينزع نحو الثبات أو فرملة التغيير محافظةً على الأساليب المعهودة في اتمام عملية التواصل.

أما أنيس فريحة فيستبعد أي دور للإنسان في تطوير اللغة، يقول: "الحياة تيسّرُ وليس المجامع اللغوية"[24] ومن أدلتنا على أن التطوير هو سُنّة الحياة وضرورة الظروف أكثر مما هو عمل إنساني، وهل يُقلّد أمرؤ القيس في قوله واصفًا جواده[25]؟:

لهُ أيْطلا ظَبيٍ وساقا نعامةٍ
وإرْخاءُ سَرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

ولكن لا يحسبنّ أحد أنّ التّجديد في اللغة أمر يسير. وقد ذكرتُ سابقًا الأسباب وأهمها ارتباط اللغة الوثيق بالقرآن الكريم واعتبار ما ورد فيه وحيًا إلهيًا ﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾[26]. لكن هذه الموضوع يحتمل النقاش، لإنّ إنّ الله، سبحانه، علّم آدم الأسماء ولم يعلمه اللغة.

إذًا الباب نصف مفتوح على كسر الجمود وإحداث تطوير في اللغة. وهذا الأمر ليس بالسيء العسير.

يقول مارون عبود – أبو محمّد–: "اللغة العربية لا تحتاج إلى تعديل خطير في نحوها"[27]. وفي كتابه "مجدّدون ومجّترون" يأسف إلى أنّ ثَمّةَ من لا يزال يكتب لمن ماتوا، أي باستخدام أسلوب ومفردات عتيقة، داعيًا إلى التخلّي عن "تعابير عمّت حتى خَمّتْ"[28].

2- **في الشأن التربوي:** أن تتولى المؤسسات التربوية خصوصًا في العلوم الإنسانية، بتوجيه من السلطات، الابتعاد عن التناقض في التوجيه وذلك من خلال اعتماد كتب سهلة الأسلوب واللغة، يدعو مضمونها إلى المحبة وترسيخ القيم الإنسانية الشاملة. ولا يعني هذا الغاء الخصوصيات وانتفاء التعدد، ولكن يعني بالتأكيد مراعاة أصول اللغة فصاحةً و بلاغة.

وفي مسألة المناهج، ثَمّة ضرورة للإقلاع عن الوسائل التربوية القديمة ولكن على قاعدة تجديدها من الداخل، وليس الإنقلاب عليها كليًّا، فالمشرقية واللغة متلازمتان، ما يُحتّمُ وضع مناهج حديثة تتوافق مع ذهنيتنا، وتأخذ ما يناسب من الأصول. فالشجرة المعمّرة تتجدد فروعًا وأغصانًا وثمارًا، ولكنها لا تتخلى عن جذورها، ففي التخلي عقم ويباس. نسوق هذه الكلام لنقول: إنَّ أسسا كثيرة من المناهج المستوردة، وأخصّ في تعليم اللغة العربية، لا تتوافق مع لغتنا، واتجاهاتنا الأدبية والفنية. فهي غريبة، أدت في ما أدت اليه، إلى تسطيح الأدب شعرًا ونثرًا، وتسطيح الفكر (إلغاء الفلسفة في مدارس بعض الدول، وهي مادّة بناء الفكر)، والاهتمام بالأشكال والقشور. ففي تحليل النصوص مثلًا نجد عددًا كبيرًا من المدرّسين والأساتذة، يتوقفون عند تقنيات بناء النص، والنظر إلى المظاهر، بينما هي في الحقيقة ليست إلا نقاطًا ضوئية هادية تدلنا إلى سبيل الانطلاق نحو الأعماق، وسبر الأفكار والتحولات النفسية والوجدانية والتعليمية في ذهن الكاتب، وفي الامتدادات الاجتماعية والإنسانية. فلجهة النواحي الأدبية يمكن اعتماد أساليب فصيحة وسهلة

في آن معًا، تجذب الطالب ولا تُنفّره. فالاصدارات العربية الحديثة، بل الأصيلة كثيرة. وعندما تنطبع العربية في أذهان الناشئة، ويتذوقون جمالها وفنها منذ الصغر، على خلفيات وجدانية فردية وإنسانية مجتمعية ووطنية مُنَزّهة من الغايات الفئوية والمذهبية، وروح التباغض والرفض، يعتادونها إذا ما أصابهم النضج فلا يتخلون عنها اطلاقًا. وما يمكن التركيز عليه إن الإنسان العربي، في مختلف مراحل عمره، ما يزال يأنس بالشعر ويستمتع، ويطرب للايقاع الموسيقي. كما انّ الشعراء والادباء، عبر العصور العربية في يسرها وعسرها، سجّلوا ظهورا مشرقًا في تحفيز الأذهان، وانهاض الهمم، وتجييش النفوس، والدفع باتجاه الذود عن الحياض وتحرير الأوطان، ونصرة لغة الضاد والناطقين بها (راجع الأبيات الشعرية الواردة سابقًا) . علمًا أن تنشيط هذه الناحية اللغوية الادبية لا يقطع سريان العولمة، ولا يقف حائلًا دون اكتساب العلوم والمعارف والتكنولوجيا الحديثة، فكم من محلّق في الرياضيات أو الفيزياء أو علوم الحاسوب، يَكْلَف في الوقت عينه بسماع قصيدة أو قراءة رواية. الانسان بطبعه متعدد متنوع. الكيان كون. وكم من امرىء يسعى الى فسحة راحة، فيخرج من حقل اختصاصه الى رفاهية فنية.. واللغة تنتظره لتقدم له الغذاء الروحي المفقود في المواد العلمية والاختصاصات التقنية. من هذا المنطلق يجب اقتلاع الافكار السائدة في بعض البيئات، وفي وجدان بعض الأفراد والجماعات، وهي أن اللغة العربية، لا قيمة لها، وأنها شاخت وتخطاها العصر، فيمكن الاعراض عنها. كمّا أنّ ما يؤذي العربية أيضًا التعصب المفرط لها، وتلقينها مع صعوباتها وتعقيداتها النحويّة، حتى ليخال المتعلمون أنها دواء مرّ. إذًا يجب تحليتها بالسهولة والبساطة، والنكهة الفنية الشعرية التي يستسيغها الجيل. ففي جينات الإنسان تكمن بذور هاجعة موروثة منذ زمن الأصالة، فما نكاد نحرّكها بالسماع، أو بالعيان قراءة، حتى تتبرعم وتنمو. هذا المنحنى، اذا ما سلكناه، يعيد ترميم القيم والمثل بما فيها جميعًا من أمثال وحِكَم وعِبَر وجمال. وبدل أن يتربى الأولاد على التعصب والتزمت، ورفض الآخر، يتلقون أصول المحبة والرحمة والعدل، وهي مقومات مسيحية إسلامية إنسانية عامّة، لا تتناقض مع الدين، فلتستمر إذًا لغة الدين مقدّسة بلا مساس، والى جانبها ومستقاة منها لغة إنسانية قيّمة تُخْرج الفرد من قوقعة الذات الفردية إلى الذات الكبرى المتصلة بالإنسانية.

### 3- في الترجمة والتعريب:

في ظل هيمنة العولمة التي تعمّ بلداننا بوسائل مختلفة، واللغة الانكليزية أداتها، دون سواها من اللغات، أصبح التعريب أمرًا ضروريًا ملحًّا على أن يشكل درع حماية للعربية. وليس الأمر بُدْعًا، فإذا راجعنا تاريخ لغتنا، وبالتحديد في عصور الازدهار، نجد أن الترجمات كانت أنشط الأعمال وأفعلها في ما قام به أسلافنا. وإذا كانت قلّة من العرب المطّلعين على اللغات الأجنبية استطاعت، في حينه، أن تنقل



مآتي اليونان والهند والفرس وسواها، وتضخّها في شرايين العربية فتحلّق بها وبما أضاف اليها العرب في المشرق وفي الاندلس من جديد ترك أثره في بلداننا، وفي اللغات الغربية عبر الأندلس بالذات. وإذا قال قائل إن العصر تحول، وإن العلوم، لم تكن آنذاك بمقدار ما هي عليه اليوم من الفيض والدقة والعمق. فالجواب عن ذلك يتلخص في ردين، الأول: إن ما تُرجم قديمًا من علوم وآداب ليس قليلًا أو بسيطًا في طبيعته ومعانيه والأمثلة كثيرة. نذكر منها كتاب "كليلة ودمنة، والسند - هند، وكتب أرسطو طاليس وبطليموس واقليدوس في مبادىء الهندسة"[29]، وهذا يسيرٌ من كثير. ونشاط الخلفاء في دعم الترجمة وتوفير الفرص لها، واضح وثابت، ففي زمن المأمون: غدت دولته دولة العلم والأدب في حين كانت الأمية متفشية في أوروبا[30]. والثاني: إن مجتمعنا اليوم ازداد علمًا وتشعبًا في المعرفة، واستفاض في صِلاته واتصالاته بجميع أمم الأرض، فتوفر، بنتيجة ذلك، كمّ هائل من المثقفين والعلماء والملّمين باللغات الفاعلة ولاسيما الانكليزية، ما يمكّنهم من نقل ما تيسر نقله من المعارف الجديدة وتقنياتها الى العربية وهذا ما يستوجب أمرين:

1- جَمْع العلماء العرب القائمين في داخل بلداننا، وإغراؤهم بالبقاء وتشجيعهم على الانتاج، يُضاف إليهم أعداد كبيرة جدًا من العلماء العرب المنتشرين في العالم والذين يساهمون باختراعات شتى، والسعي الى استرجاعهم إلى أرض العروبة لينتجوا فيها. وبعض دولنا، بمقدراتها، يمكن أن تقدم لهم الحوافز للعودة.

2- إنشاء مراكز ترجمة في الدول العربية كافة، وربما في الخارج، تكون على صلات دائمة في ما بينها. تلاحق كل جديد ينشأ في الأمم المتطورة، ترعاها جامعة الدول العربية، أو أي دولة قادرة على احتضانها، شرط توفير الاعتمادات المالية اللازمة لها، فالتقصير في الترجمة يجعلنا على هامش العصر، بل قد يجعلنا تابعين باستمرار. يقول ابراهيم اليازجي "إننا إن دخلنا أحد المعارض الصناعية أو الطبيعية، وقرأنا المسمّيات على أصغر الاشياء وتفاصيلها، لعجزنا عن الفهم، فكيف لو أردنا الكلام في المخترعات العلمية والصناعية، والمكتشفات الطبية والكيماوية والفنون"[31] ما يعني ضرورة الترجمة لمواكبة التطور العالمي. ولا يشترط في الترجمة تعريب جميع الألفاظ والتعابير، بل يمكن نقل ما تعسّر تعريبه، بالحرف العربي يقابله اللفظ الأجنبي، يقتدى، في هذا السياق، بما كان يجري في العصرين الأموي والعباسي، إذ نُقلت انذاك ألفاظ كثيرة ودخلت بأعجميتها إلى اللغة العربية. مع الإشارة إلى أن جميع لغات العالم لا تتمتع بالصفاء الكلي فهي تتداخل مثلما تتداخل الأجناس البشرية. حتى أنّ القرآن الكريم فيه من المفردات الفارسية والهندية والرومية الكثير.

لا يخافَنّ أحد على العربية من خطر العولمة اللغوية إذا أحسنّا أخذ الضروري من المصطلحات الإنكليزية والفرنسية

والإسبانية إمّا ترجمةً وإمّا تعريبًا وإمّا نقلًا؟ ففي الجاهلية عَرَّبَ عن الفارسية مثل الدولاب، والدسكرة، والكعك، والسميذ والجلّنار. وعن الهندية أو السنسكريتية مثل الفلفل، والجاموس، والشطرنج، والصندل، وعن اليونانية مثل القبّان، والقّنطار، والترياق"(32) ولم تسقط اللغة لأنها هضمت هذه المفردات. الخطر يَكْمن في الكتابة بالحرف اللاتيني مطعّمًا بالأرقام. والخطر على الثقافة والتراث يكمن في تلقّف كل غريب عن عاداتنا وسلوكياتنا وآدابنا وتربيتنا.

ونؤكد هنا أن اللغة كائن حي وأن العربية، بما حباها الله، هي كائن أكثر حيّوية من سواها، ومثلما أن الكائن ينمو ويتحول، هكذا اللغة تتطور وتتحول، هي كالحياة تتمتع بدفق مستمر. وإذا قمعنا تطوراتها ومجاراتها للمسيرة الحياتيه فنحن عندئذٍ نتعدى على الحياة المغمورة بالروح الكلية اللا محدودة. واللغة العربية التي استطاعت تفسير الماورائيات، ورموز الدين، ورصدت الصفات النفسية والمسائل الغيبية، لا يجوز أن تعجز عن تصوير الماديات بمعنى القدرة على تسمية الأشياء الأجنبية على سبيل الترجمة أو الاشتقاق. ونلفت هنا إلى أن المقدس يستمر على طبيعته ثابتًا لاتصاله بالألوهة، وهو يمتد بوهجه إلى النواحي الوجدانية الفردية والجماعية من حياة الناس. واللغة العربية المنزلة، لها في هذا الاطار ثباتها، ولكنها لا تقف عائقًا في وجه التطوير المفيد، بل لها وعليها أن تحول دون التطور الذي يشوّه القيم والأخلاق والانضباط الفردي والجماعي.

وختامًا فإن للعولمة فوائدها ومضارها، وللغة العربية ضروراتها ومبادئها، فالأولى تجعل المجتمعات العالمية على تواصل جماعات وأفرادًا، وتشيع المعرفة بينهم بسرعة مذهلة، وتعمم الفوائد، وتمحو الفواصل بين القارات والدول والاقاليم. فهي للغني كما للفقير، وللعالم كما للجاهل، كل ينهل منها ما استساغ وما استطاعت صحته الفكرية والوجدانية أن تتقبل. إنها كالعسل فإن تناوله صاحب الجسم السليم باسراف، ازداد عافية، أو تناوله صاحب الجسم السقيم شكّل خطرًا على صحته لاستقباله ما لا يحتمل. وفي مثل هذا تكمن سيئات العولمة لأنها تتطلب مناعة فردية وجماعية لتلقف المفيد والابتعاد عن المضر. والثانية: - أي العربية - التي تمتد جذورها في أعماق التاريخ المشرقي، وتتطاول باغصانها إلى كل مكان من الشرق والغرب، يستمر فيها المقدس مقدسًا، على ما يقوم عليه الدّين، ولا يجوز أن تمتد إليه يد التحريف، وفكر الشك، وضوابط العلم. كما أن الانساني والوجداني فيها يجب أن يستمر على تطور، وان قسطًا كبيرًا من العلوم يمكن أن يترجم إليها. واللغة العربية إذا توفرت لها دينامية فكرية وثقافية عربية يتسع وعاؤها، وتنهض من جديد.

وأخيرًا يمكن القول إن لغتنا، وفي خلال عصور متفاوتة مرت بأربعة تحديات لغوية مع ما يتبعها من مظاهر الأثرة والطغيان وبسط النفوذ: اللغة الفارسية، واللغة التركية، واللغة الفرنسية، وآخرها اللغة الانكليزية رسولة العولمة، واستطاعت فيها جميعًا أن



تصمد بما فيها من أصالة، وأن تستمر لتتحدى، وتقف حتى بوجه العولمة التي تهبّ عواصفها من كل صوب، حاملة أمواجًا من الجديد تسعى من خلاله إلى طمس ما كان عندنا، فالعولمة ما تزال تعلو شأناً ، واللغة تتلقاها على قواعد صامدة. يبقى أن ينهض الفكر العربي وأن تتوفر له أسباب النهوض والثبات حتى نصبح، كما في الماضي، جزءًا من العولمة ونحتل المكانة التي تليق بماضينا الحضاري والثقافي، فالتحدي الحقيقي ليس في العولمة بذاتها ففيها فوائد لا ترد، إنما التحدي في كيفية تطوير الفكر العربي، وتطوير اللغة ليصبح إنساننا منتجًا وليس متلقيًا ومستهلكًا، فإن أنتجنا واخترعنا نطلق على مصنوعات أيدينا، بكل بساطة أسماء عربية، وعندئذٍ تسير مجتمعاتنا إلى الأمام، وتشارك في انجازات قيّمة وتمضي في ركب التطور ممسكة بالجوهر، بصفاء الوجدان ورسوخ العقيدة.

***

## الهوامش:

- **باحث وأستاذ في الجامعة اللبنانية**

1- أسعد علي، فيكتور الكك، جذور العربية فروع الحياة، دار السؤال للطباعة والنشر، طـ 2، دمشق 1981، ص 23.

2- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، الخصائص، دار الهدى، القاهرة 1955، الجزء الأول، ص 33.

3- قرآن كريم سورة الرحمن، الآيات (1.2.3)

4- سورة طه الآية 114.

5- سورة الزّمر الآية 9.

6- سورة فصّلت الآية 3.

7- يوسف الصيّداوي، اللغة والناس، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 1، 1996، ص 265.

8- الإنجيل المقدس (متى 36/12)

9- جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، دار صادر، دار بيروت، بيروت 1964 النّبي ص 101.102

10- الجاحظ، البيّان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر ط 4 1395 هـ 1975 م ج 1، ص 117

11- مصطفى صادق الرفاعي، وحي القلم، دار الكتاب العربي، بيروت ج 3، ص 32

12- يسرى اصطفان، دور المسيحيين على الصعيدين الفكري والاجتماعي في العصر العباسي، أطروحة دكتوراه – الجامعة اللبنانية 2018، ص 150

13- بطرس البستاني، أدباء العرب في الأعصر العباسية، بيروت ط 3 1939،ص 203

14- جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق محمد عمارة، القاهرة 1968،ص209

15- رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)، الديوان، دار المسيرة، ج 1، بيروت 1978، ص38-39

16- زينب بيره جكلي، أثر العولمة على اللغة العربية، الموقع العنكبوتي (الانترنت)، لندن، رابطة أدباء الشام www.odaba sham.net/showo

17- جورج شكيب سعادة، الزجل اللبناني بين جبل لبنان وجبل عامل، منشورات الجامعة اللبنانية (قسم الدراسات الأدبية) لبنان، بيروت، 2016 ص 35-38

18- جورج شكيب سعادة، من رياض الأدب، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ، 2002ص 183-186

19- مجلة معلومات دولية، العولمة وأثرها السلبي على سيادة الدول العدد 58 السنة السادسة 1998،دمشق، ص 63

20- عبد الكريم بكّار: العولمة، وطبيعتها، ووسائلها، تحداتها، التعامل معها، دار الإعلام للنشر ط1، عمّان 2001، ص11

21- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية 13

22- الإنجيل المقدس، العهد الجديد (يوحنا، الفصل الأول/ الآية 1)

23- القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية 3

24- أنيس فريحة: يَسّروا أساليب تعليم العربية، بيروت، الجامعة الأميريكة، 1956

25- ديوان امرئ القيس، ص 55

26- قرآن كريم، سورة البقرة، الآية 31

27- مارون عبود، المجموعة الكاملة، المجلد 5، ص 258

28- مارون عبود، المجموعة الكاملة، المجلد 4، ص 26

29- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجواهر، القاهرة، لا دار، 1958 ج 4، ص 241-242

30- Sykers,perey, history of Persia, London. 1969 .v2, p9

31- عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، دار الفكر العربي، بيروت، ط 6، ج 2، ص 180

32- صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ط 17، أيار 2005، ص 67.

***